

آليات توحيد اختلاف الاتجاهات في فهم القرآن الكريم

د. بركات عمار / جامعة معسكر

أ. علوان فوزية / جامعة خنشلة

لقد كان فهم المسلمين للقرآن الكريم موحدًا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك نظرًا لامتلاكه سلطة روحية جعلت المسلمين يجمعون على شرعيتها، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام اختلف الصحابة والمسلمون في فهم القرآن نظرًا لعوامل سياسية واجتماعية مرت بها الدولة الإسلامية آنذاك، خصوصًا مع نهاية الخلافة الراشدة وبداية الدولة الأموية، حيث برزت إشكالية فهم القرآن بحدة مع ظهور اتجاهات مثلها الفرق الإسلامية من سنة وشيعة وخوارج ومعتزلة وحتى الصوفية، وما زال هذا الاختلاف في الفهم، يؤثر في وقتنا الحالي المتميز بظهور ظواهر جديدة وأحداث معاصرة، تلزم على المسلمين التوحد في فهم القرآن، الذي لا مفر منه اليوم لمواجهة المشاكل التي تتخبط فيها الأمة الإسلامية وضمان توحيدها مستقبلًا، لكن مع هذه الظواهر المستجدة -وأمام هذه الفرقة في الفهم- جعلت المسلمين يقعون في جدلية يصعب الخروج منها وهي جدلية النص والواقع، أو بعبارة أكثر وضوحًا جدلية الخطاب والممارسة، فهل من الممكن أن نؤسس لآليات تجمع المسلمين -على اختلاف اتجاهاتهم- على أرضية مشتركة لفهم القرآن؟ وإذا كان كذلك فما هي الآليات أو الضوابط التي تقرب بين فهم الاتجاهات المختلف؟



في هذا الإطار تأتي هذه الورقة لتبين بداية مفاهيمية للقرآن كنص ديني ثم نظرة تطويرية للفهم أو التفسير، ونشأة اختلافه، ثم علاقته بالتقليد والتجديد خصوصاً في الفترة الحالية، وبعد ذلك محاولة عرض للآليات الناجعة والممكنة التي نأمل أن توحد بين الاختلاف في فهم القرآن الكريم.

القرآن الكريم كتاب الله المعجز، الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليكون هداية للبشر نزل ليخاطب البشر جميعاً، فكان أساس حضارة المسلمين التي ازدهرت قروناً فأشعت في العالم كله نور الهدى والمعرفة، ودفعت بالإنسانية إلى حب الحياة والسعي إلى تعمير الأرض وتسخير الطبيعة، لتؤدي غايتها في نفع الإنسان الذي كرمه الله وجعله أشرف مخلوقاته وخليفته على الأرض.

القرآن كنص ديني:

في اللغة: مصدر قرأ بمعنى تلا، أو بمعنى جمع، تقول قرأ قرأ وقرأنا، كما تقول: غفر غفراً وغفرانا، فعلى المعنى الأول (تلا) يكون مصدراً بمعنى اسم المفعول، أي بمعنى متلو، وعلى المعنى الثاني: (جمع) يكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل، أي بمعنى جامع لجمعه الأخبار والأحكام⁽¹⁾. والقرآن في الشرع: كلام الله تعالى المنزل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس. قال تعالى: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا"⁽²⁾ وقال: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"⁽³⁾.

(1) ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول أيضاً، أي بمعنى مجموع، لأنه جمع في المصاحف والصدور. انظر: محمد صفا شيخ إبراهيم حقي، علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2004م، ص 33.

(2) سورة الانسان، الآية: 23.

(3) سورة يوسف، الآية: 2.

وقد حمى الله تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل، حيث تكفل عز وجل بحفظه فقال: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" ⁽¹⁾، ولذلك مضت القرون الكثيرة ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغير فيه، أو يزيد، أو ينقص، أو يبدل، إلا هتك الله ستره، وفضح أمره.

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة، تدل على عظمته وبركته وتأثيره وشموله، وأنه حاكم على ما قبله من الكتب. قال الله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" ⁽²⁾، وقال تعالى: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ" ⁽³⁾، وقوله: "وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ" ⁽⁴⁾.

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بعث بها محمد صلي الله عليه وسلم إلى كافة الناس، قال الله تعالى: "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا" ⁽⁵⁾، وقال تعالى "الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ" ⁽¹⁾ **اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ⁽²⁾ ⁽⁶⁾. وسنة النبي صلي الله عليه وسلم مصدر تشريع أيضا كما قرره القرآن ⁽⁷⁾.

(1) سورة الحجر، الآية: 9.

(2) سورة الحجر، الآية: 87.

(3) سورة ص، الآية: 29.

(4) سورة ق، الآية: 1.

(5) سورة الفرقان، الآية: 01.

(6) سورة ابراهيم، الآية: 1 - 2.

(7) نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق، ط1، 1993م، ص14.

أول ما نزل من القرآن:

نزل القرآن أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر في رمضان، قال الله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)⁽¹⁾ وكان عمر النبي صلى الله عليه وسلم أول ما نزل عليه القرآن أربعين سنة على المشهور عند أهل العلم، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم . وهذه السن هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك الذي نزل القرآن من عند الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، جبريل أحد الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) " ⁽²⁾ . وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة، من الكرم والقوة والقرب من الله تعالى والمكانة والاحترام بين الملائكة والأمانة والحسن والطهارة، ما جعله أهلاً لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسوله قال الله تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ" ⁽³⁾ .

أول ما نزل القرآن على وجه الإطلاق قطعاً الآيات الخمس الأولى من سورة العلق وهي قولها تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) " ⁽⁴⁾ .

(1) سورة البقرة، الآية: 185.

(2) سورة الشعراء، الآية: 192 - 195.

(3) سورة النحل، الآية: 102.

(4) سورة العلق، الآية: 1 - 5.

وقد جاء في الصحيحين، عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت :
حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال اقرأ، فقال النبي صلى
الله عليه وسلم ما أنا بقارئ (يعني لست أعرف القراءة) فذكر الحديث، وفيه
ثم قال: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1)" إلى قوله: "عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ
يَعْلَم"(5)"، وفيهما عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
وهو يحدث عن فترة الوحي: "بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء..." فذكر
الحديث، وفيه أنزل الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ(2)" إلى "وَالرُّجْزَ
فَاهْجُرْ(5)" (1).

وثمة آيات يقال فيها : أول ما نزل، والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين،
فتكون أولية مقيدة مثل : حديث جابر رضي الله عنه في (الصحيحين). إن أبا
سلمة بن عبد الرحمن سأل: أي القرآن أنزل أول؟ قال جابر: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ".
قال أبو سلمة: أنبت أنه "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ". فقال جابر: لا أخبرك إلا
بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت ..." فذكر الحديث وفيه: "فأتيت
خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء بارداً، وأنزل علي: "يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ"، إلى
قوله: "وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ"، فهذه الآية الأولى التي ذكرها جابر رضي الله عنه
باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة، لأن ما نزل
سورة اقرأ ثبتت نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وما نزل من سورة المدثر ثبتت
به الرسالة في قوله: "قُمْ فَأَنْذِرْ" ولهذا قال أهل العلم: إن النبي صلى الله عليه
وسلم نبي ب "اقْرَأْ" وأرسل ب "الْمُدَّثِّرُ" (2)

- (1) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب 1: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ، أصول في التفسير، حديث رقم 3، ومسلم كتاب الإيمان باب 73: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 403 { 252 } 160.
- (2) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب 3 قوله : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) حديث رقم 4924 ؛ ومسلم

- نزول القرآن ابتدائي وسببي : ينقسم نزول القرآن إلى قسمين : القسم الأول:

ابتدائي : وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القرآن ومنه قوله تعالى: "وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ" ⁽¹⁾، القسم الثاني :

سببي : وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه والسبب:

أ- إما سؤال يجيب الله عنه مثل قوله: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ" ⁽²⁾

ب- أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل قوله: "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ" ⁽³⁾، الآيتين نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرآن هؤلاء أقرب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبين عند اللقاء، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر النبي صلى الله عليه وسلم فيجيبه: "أَبِاللَّهِ وَأَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ" ⁽⁴⁾.

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه مثل: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" ⁽⁵⁾.

كتاب الإيمان باب 73: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديث رقم 409 { 257 } 161.

(1) سورة التوبة، الآية : 75.

(2) سورة البقرة، الآية : 189.

(3) سورة التوبة، الآية : 65.

(4) سورة التوبة، الآية : 65.

(5) سورة المجادلة، الآية : 1.

- كتابة القرآن وجمعه: لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان الإعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الإعتماد على الكتابة، لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة، ولذلك لم يجمع في مصحف بل كان من سمع آية حفظها، أو كتبها فيما تيسر له من عصب النخل، ورقاع الجلود، ولخاف الحجارة، وكسر الأكتاف وكان القراء عددا كبيرا ففي " صحيح البخاري " عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سبعين رجلا يقال لهم : القراء، فعرض لهم حيان من بني سليم رعل وذكوان عند بئر معونة فقتلوهم، وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي خليفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم.⁽¹⁾

المرحلة الثانية : في عهد أبي بكر رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة وسببه أنه قتل في وقعة اليمامة عددا كبيرا من القراء منهم، سالم مولى أبي حذيفة، أحد من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن منهم، فأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمعه لئلا يضيع، ففي صحيح البخاري " أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي الله عنهما بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة، فتوقف تورعا، فلم يزل عمر يراجع حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك، فأرسل إلى زيد بن ثابت فأتاه، وعنده عمر فقال له أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فجمعه، قال: فتتبع القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال، فكانت المصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر في حياته، ثم عند

(1) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب العون بالمدد حديث رقم (3064) .

حفصة بنت عمر رضي الله عنهما" وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدوه من حسناته، حتى قال على رضي الله عنه: أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله⁽¹⁾

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في السنة الخامسة والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة رضي الله عنهم فخيبت الفتنة، فأمر عثمان رضي الله عنه أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد، لئلا يختلف الناس، فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا، ففي "صحيح البخاري" أن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان من فتح أرمينية وأذربيجان، وقد أفزعته اختلافهم في القراءة، فقال: أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

وكان زيد بن ثابت أنصاريًا والثلاثة قرشيين، وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، وإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق⁽²⁾.

وقد فعل عثمان رضي الله عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي الله عنهم، لما روي ابن أبي داود عن علي رضي الله عنه أنه قال: والله ما فعل في ملء (1) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) الآية 128 سورة التوبة.

(2) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن حديث رقم (4987).

المصاحف إلا عن ملء منا، قال: أرى أن نجتمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف قلنا، فنعم ما رأيت وقال مصعب بن سعد: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد، وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه التي وافقه المسلمون عليها، وكانت مكملة لجمع خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر رضي الله عنه⁽¹⁾.

والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي الله عنهما أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف، حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناس على الاجتماع على مصحف واحد، وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد، وأما الغرض من جمعه في عهد عثمان رضي الله عنه فهو تقييد القرآن كله مجموعاً في مصحف واحد، يحمل الناس على الاجتماع عليه لظهور الأثر المخيف باختلاف القراءات⁽²⁾.

تطور فهم وتفسير القرآن:

التفسير:

لغة: التفسير في اللغة من الفسر، وهو الكشف عن المغطى، وفسر الشيء يفسره بالكسرو يفسره بالضم فسراً وفسره وفسره أبانه ووضحه، وفسر القول إذا كشف المراد عن اللفظ المشكل⁽³⁾

- (1) أخرجه الخطيب في كتاب فضائل القراءان للوصل المدرج 2 / 954 .
- (2) فهد عبد الرحمن بن سليمان الرومي، جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ط1، 2003م، ص30.
- (3) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دار النوادر، الكويت، ط1، ج5، ص555.

وقد اشتهرت لفظة التفسير مقرونة بالقرآن الكريم، حتى أصبحت هذه اللفظة إذا أطلقت فقليل التفسير أريد به العلم الموضح لمعاني القرآن الكريم، والتفسير للمبالغة، وقد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغيرها، وفيما يختص بالتأويل، ولهذا يقال "تفسير الرؤيا وتأويلها"⁽¹⁾

وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم. وعرفه الجرجاني في التعريفات بقوله: "توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة"⁽²⁾.

وتعلم التفسير واجب لقوله تعالى: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ"⁽³⁾، ولقوله تعالى: "أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"⁽⁴⁾، فوجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك، أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها فالتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك، فانت الحكمة من إنزال القرآن، وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها، ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه، ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله تعالى وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها⁽⁵⁾.

(1) الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد السيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص 382.

(2) أبي الشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، دار المعرفة، مصر، 1938م، ص 67.

(3) ص: 29.

(4) سورة محمد، الآية: 24.

5- عبد القادر محمد صالح، التفسير والمفسرون في العصر الحديث، دار المعرفة، بيروت، ص 82.

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه، لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن. وقال أبو عبد الرحمان السلمي: حدثنا الذي كانوا يقرئونا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا قال الشيخ الإسلام ابن تيمية: والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم⁽¹⁾.

ويرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي : إلى كلام الله عز وجل، فيفسر القرآن بالقرآن لأن الله هو الذي أنزله، وهو من أعلم بما أراد لقوله تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)⁽²⁾ فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها : (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)⁽³⁾.

وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيفسر القرآن بالسنة، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى كلامه. ولذلك أمثلة منها: قوله تعالى: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ"⁽⁴⁾. ففسر النبي صلى الله عليه وسلم الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه

(1) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الرياض، ج6، 1426هـ، ص 2277.

(2) سورة يونس، الآية : 62.

(3) سورة يونس، الآية : 63.

(4) سورة يونس، الآية : 26.

ابن جرير وابن أبي حاتم صريحا من حديث أبي موسى⁽¹⁾. وعن صهيب بن سنان عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث قال فيه: "فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل"، ثم تلا هذه الآية: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"⁽²⁾، وقوله تعالى: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ"⁽³⁾ فقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة بالرمي⁽⁴⁾.

كلام الصحابة رضي الله عنهم لا سيما والعلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة، وأيضا كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم، لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم، ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيرا في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم⁽⁵⁾.

وهكذا لم يكن القرآن الكريم عند الصحابة والتابعين كتاب دين جاء ليضع أسس العبادات أولتثبيت المواعظ الأخلاقية بدعوته لمكارم الأخلاق أو تاريخا لقرون ماضية أهملها التاريخ أو لم يصل إلى معرفته بها، ليكون في ذكر تاريخها عظة وعبرة لم يكن القرآن الكريم عندهم كل هذا فحسب، بل كتاب

(1) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره 6/1945، حديث رقم 10341، وأخرجه اللالكائي في شرح الاعتقاد، مج 2، 3، 459-458، حديث رقم 785.

(2) سورة يونس، الآية: 26.

(3) سورة الأنفال، الآية: 60.

(4) أخرجه مسلم ص 1020، كتاب الإمارة، باب 52: فضل الرمي والحث عليه...، حديث رقم 4946 (167).

(5) عبد القادر محمد صالح، ص 90.

ميتافيزيقي يصور الألوهية، في صورتها النهائية، يحدد قوانين الطبيعة وكتاب أخلاقي يضع قواعد للسلوك الانساني وكتبا في السياسة يحدد أسس الحكم والعلاقات الدولية، كان فوق كل هذا كتاب المعرفة الشاملة الذي لم يترك جانبا من جوانب الفكر والعمل أو الدين والشريعة، إلا وقد تناولته، فهو بحق وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله منذ نشأته وحتى فنائه⁽⁶⁾.

فقد اجتهد المسلمون -منذ البداية- أن يتلمسوا في القرآن الكريم أصول تفكيرهم، وأن يطمئنوا إلى أحكامه الكلية، وأن يجتهدوا ما شاء لهم الاجتهاد في محيطه الواسع، فوجدوا فيه ما يتعلق بالألوهية والعالم والإنسان حيث دعاهم القرآن إلى التقيد به والعمل بأحكامه، والسلوك على أساسه لا إلى مجرد تأمل اللفظ والوقوف عند التأمل النظري بل العمل والسلوك⁽⁷⁾، ولقد أورد ابن تيمية من الآثار والأخبار عن النبي والصحابة ما يفيد عناية الصحابة بتفقه القرآن واستخراج العمل به⁽⁸⁾، ويقول الدكتور ناصر العقل: "اختلف الصحابة رضي الله عنهم بعد الرسول صلى الله عليه وسلم في مسائل مهمة وأمور خطيرة ولكن اختلافهم كان ينتهي بالإجماع أو العمل على ما يترجح، أو يفصل الأمر الخليفة أو أهل الحل والعقد، أو يبقى الخلاف سائغا في ذلك كله لم يصل الأمر إلى حد التنازع في الدين، ولا الإفتراق والخروج على الجماعة ولم يبع بعضهم على بعض"⁽⁹⁾، ولذا اتجه المسلمون إلى تفسير القرآن في وقت مبكر لفهم القرآن وبيان معانيه واستخراج أحكامه وتعاليمه وأدلة هذه الأحكام وأيضا معرفة أسباب نزوله، ووجوه الإعجاز فيه.

(1) علي سامي النشار، نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، الاسكندرية، ط4، ج1، 1966م، ص ص 31-32.

(7) محمد صالح محمد السيد، أصالة علم الكلام، دار الثقافة، القاهرة، 1987م، ص ص 73-74.

(8) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، منشورات دار الحياة، بيروت، ص 9.

(9) ناصر عبد الكريم العقل، دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها، دار كنوز اشبيليا، الرياض، ط2، ج1، ص116.

فاختلفت مناهج المفسرين فمنهم من وقف عند النص الظاهر مانعا من استخدام الرأي والعقل في التفسير⁽¹⁾، ومنهم من أباحه⁽²⁾، حيث انشغل هؤلاء بالآيات المتشابهات في القرآن الكريم تلك الآيات التي أثارت تفسيرات وتأويلات مختلفة مما دعا العقل إلى النظر فيها وذلك لأن القرآن الكريم قد ترك التحديد فيها أحيانا مما دفع العقل إلى التفكير لفهم المقصود منها، فترك الباب مفتوحا بإزاء هذه الآيات فلم يلزم المسلم بمراده بمعنى معين على نحو ما نجد الآيات المتعلقة بالجبر والاختيار وكذلك تفسير الثواب والعقاب، آيات التشبيه والتجسيم هذه الآيات التي أثارت نقاشا عقليا وتساؤلات عرضت على العقل فأمعن النظر في فهم القرآن الكريم مما دعاه للاجتهاد فيها وقد ظل في إطارها يفكر وينظر⁽³⁾.

والمحكم والمتشابه هما مصطلحان قرآنيان، استعملهما القرآن الكريم وعرف أن آياته فيها المحكم والمتشابه؛ فالمحكم هو الذي أحكمه الله أي فصله عن الاشتباه بغيره، وفصل منه ما ليس منه، يقول ابن تيمية: "فإن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل اتقانه، ولهذا دخل فيه معنى المنع"⁽⁴⁾، والمحكم أيضا جعله متقنا واضح⁽⁵⁾، فالآيات المحكمات هي آيات واضحة لا غموض فيها ولا فساد⁽⁶⁾.

(1) ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، ص 39.

(2) أي استخدام الرأي في تفسير القرآن والتدبر والتعقل لفهم آياته ينظر (عبد الله شحاته، منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم، مطبعة جامعة مصر، القاهرة، 1984م، ص 13).

(3) محمد صالح محمد السيد، ص 74.

(4) ابن تيمية، الإكليل في المتشابه والتأويل، مكتبة أنصار السنة المحمدية، مصر، ط 2، 1947م، ص 7.

(5) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مادة حكم.

(6) محمد اسماعيل ابراهيم، معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1964م، مادة حكم.

والمتشابه في اللغة هو المشكل والملتبس وقوله تعالى: (آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) وقيل معناه يشبه بعضها بعضاً⁽¹⁾. فقد أدى النظري في نصوص القرآن بداية من السلف الذين كانوا يجدون فيه إشكالية التقابل بين العقل والقرآن، وإمكان ضرورة التأويل ومن حيث كيفية ارتباط المعنى الباطني بالظاهري، وبيان المعنى الصحيح، وأدى سوء الفهم إلى كثير من التشويش في موروثنا الثقافي، وما إن تعددت الفرق والمذاهب حتى كثرت الاختلافات بخاصة في علم الفقه والمسائل السياسية وذلك بسبب تلك العوامل الخارجية التي نشأت داخل كيان الأمة الإسلامية نتيجة للتركيب الاجتماعي والانحراف الفكري والهوى الشخصي، فانفتحاح المسلمين على ثقافات أخرى لها دياناتها المختلفة قد لعب دوراً هاماً في احتكاك المسلمين بالشعوب الأخرى في البلاد التي فتحوها، وهو ما أدى إلى تفجير الكثير من المشكلات العقائدية التي أصبح من الضروري تناولها بالبحث والمعالجة، بالإضافة إلى حركة الترجمة ودخول الفلسفة اليونانية إلى الساحة الثقافية العربية فتأثر بها المسلمون⁽²⁾. وقد استتبع دخول المفاهيم والتصورات دخول عادات غريبة على الكيان الإسلامي والتي عملت على إشاعة التفرقة وتشعب الآراء والأهواء.

أما العوامل الداخلية، فكان أهمها عامل السياسة الذي كان من أكثر العوامل تصدعاً لوحدة المسلمين، حيث يقول أبو الحسن الأشعري: " أول ما حدث بين المسلمين بعد وفاة نبيهم اختلافهم في الإمامة"⁽³⁾.

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مادة شبه .

(2) نوران الجزيري، قراءة في علم الكلام الغائبة عند الأشاعرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م، ص 10 - 11 .

(3) أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط 2، ج 1، 1969، ص 34.

فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة حدث أول خلاف بين المسلمين فكان الخلاف حول وفاته - عليه السلام - وعلى إرثه ودفنه، ثم حدث الخلاف بعدها حول الخلافة، ومن أحق بها، وقد تصدى أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - لحسم هذه الخلافات التي نشبت ونجح في ذلك، ثم حدثت حروب الردة فأثارت أيضاً وجهات مختلفة من النظر حول بعض الموضوعات⁽¹⁾، إلا أن الخلاف الأكثر عمقا وتأثيرا حدث في حكم عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ثم بعد مقتله، وكانت الفترة التي تلت مقتل عثمان مسرحا مهيئاً لظهور خلافات كبيرة بين المسلمين، وحدثت الصدامات الدموية والمعارك من أجل الخلافة وخاض علي أكثر من معركة فكانت حربه مع طلحة والزبير ثم حربه مع معاوية بن أبي سفيان، وكانت حادثة التحكيم المعروفة، إذ أن عليا كان يفرض التحكيم الذي طلبه معاوية، ولكن بعض أنصاره طالبوه بقبول هذا التحكيم ولما قبله، كان ما كان من أمر عمر ابن العاص وأبي موسى الأشعري، عاد هؤلاء الأنصار وانقلبوا على علي لقبوله التحكيم، وخرجوا عليه وسموا بالخوارج⁽²⁾.

ولم يضع مقتل علي حدا للفتنة المستمرة، بل زاد خطر الخوارج وصاروا يمثلون شوكة في جنب الدولة الأموية يهددون أمنها وأمن الجماعة المسلمة⁽³⁾.

وقد انقسم المسلمون في تلك الخلافات التي كانت بين علي ومعاوية إلى ثلاثة أقسام: فريق يؤيد عليا، وفريق يؤيد معاوية وفريق أبي الخوض في تلك النزاعات واختار الإبتعاد عن تلك الفتن، ولكن ظهور الخوارج كفرقة لها عقائد وآراء

(1) نوران الجزيري، المرجع السابق، ص 9.

(2) المرجع نفسه، ص 10.

(3) أحمد محمد أحمد جلي، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين - الخوارج والشيعة -، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط 2، 1988 م، ص 47.

خاصة كان أول افتراق بين المسلمين لأن الخلاف الذي كان بين علي ومعاوية لم يكن خلافا عقديا وإنما سياسيا بدرجة أولى⁽¹⁾.

فإذا كانت الخوارج نتيجة عن مسألة التحكيم فإن الشيعة كانت في تلك الأيام خاصة بعد مقتل علي فإنهم كانوا يشايعون عليا وأولاده، إلا أن فكرة التشيع ظهرت وتبلورت كعقيدة بعد مقتل حسين بن علي وموقعة كربلاء⁽²⁾.

ومن هنا فإن الخلاف حول الإمامة، وما استتبعه من ظروف وملابسات كان الأصل الأول لتكوين فرق اسلامية تختلف في وجهات النظر، وبالإضافة إلى البعد السياسي لموضوع الإمامة، فإن الخلاف استتبعه أيضا خلاف حاد حول الأصول الكبرى للعقيدة، حيث تحولت تلك الأحزاب إلى مذاهب، وتحول الخلاف إلى خلاف فكري، ومن هنا بدأت تلك المحاولات الفكرية لتجديد معنى الإيمان وأركانه وشروطه التي ينبغي توفرها في الشخص الذي يعد مؤمنا، إذ أن تلك الحروب المواقبة لتلك الفترة كانت بين طرفين مسلمين، إذا فأحد الطرفين هو بالضرورة مذنب ومرتكب لكبيرة القتل هل هو مؤمن عاص ؟ أو كافر خارج عن الملة ؟ كما زعمت الخوارج، ومن ثم ثارت مشكلة حد الإيمان والكفر والعلاقة بين الإيمان والإسلام حتى يعد الشخص مؤمنا⁽³⁾

ثم حدث في إبان حكم الدولة الأموية، وفي عهد هشام بن عبد الملك (106هـ) أن تبلورت مشكلة أخرى في صميم أصول العقيدة فمظالم الأمويين بلغت في ذلك الوقت حدا كبيرا وكان فقهاؤهم يبررون مفسادهم بقضاء الله وقدره، فكان أن نهض من عرفوا بالقدرية الأوائل ليرفضوا هذا التبرير ويؤكدوا على حرية اختيار الإنسان ويرفضوا القول بالجبر الذي تبناه الأمويون ليوطدوا

(1) المرجع نفسه، ص 48.

(2) المرجع نفسه، ص 48.

(3) نوران الجزيري، المرجع السابق، ص 10.

حكمهم، وحمل القدرية الأوائل منهم عبد الجني وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم لواء دعوة الحرية الإنسانية⁽¹⁾.

وفي تلك الحقبة بدأت الحركة الاعتزالية، والتي تعد امتدادا لدعوة القدرية الأوائل، فقد حدث خلاف في مجلس الحسن البصري (110هـ) حول مرتكب الكبيرة أهو مؤمن أم كافر؟ فقال واصل بن عطاء الغزال (131هـ) أنه لا مؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين منزلتين، فخالف في الرأي واعتزل المجلس وتبعه في ذلك عمرو بن عبيد (142هـ) فقليل عنهما معتزلة⁽²⁾.

والواقع أن الخلاف السياسي ما كان ليبتعد عن الدين باحثا في نصوصه عما يؤيد موقفه وقد أدى هذا الاجتهاد في فهم النصوص وتأويلها تأويلا خاصا فصار لكل حزب سياسي قرمة دينية لها معتقداتها، بالإضافة إلى مشكلة الإمامة والإيمان، والقدر التي كانت نتيجة الخلاف بين الخوارج والشيعة، أثارت الآيات المتعلقة "بالجبر والاختيار" نقاشا عقليا منكرا للحرية من جهة، ومثبت لها من جهة أخرى عند المعتزلة والأشعرية فنجد قوله تعالى: "وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكْ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ"⁽³⁾ وقوله تعالى: "وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ"⁽⁴⁾ وظاهريا بين الآيتين، فالأولى تربط مشيئة الفرد بمشيئة الله ويفهم منها أن الانسان لا يفعل شيئا بمحض إرادته، والثانية تظهر أن للإنسان مشيئة خاصة يفعل بها الأشياء وبمحض إرادته فهو حرمختار، هنا يبدو التعارض لأن هذه الآيات تركت الباب مفتوحا للقول بالجبر أو القول بالحرية، ولم تقطع برأي بعينه ومن هنا بدأ العقل يتساءل كيف يمكن أن يكون الإنسان مختارا ومجبورا في آن واحد؟

(1) أحمد محمد أحمد جلي، المرجع السابق، ص 10

(2) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1985م، ص 15.

(3) سورة الكهف، الآية: 23 - 24.

(4) سورة الكهف، الآية: 29.

ثم هل للإنسان إرادة يدبر بها؟ وما صلة هذه الإرادة بإرادة الله تعالى؟ وما معنى اختيار الإنسان إذا كان له اختيار؟ وما معنى كون الإنسان مجبوراً؟ وكذلك ما تفسير الثواب والعقاب مع القول بالجبر؟ كل هذه التساؤلات عرضت على العقل الإنساني عندما أمعن النظر في فهم نصوص القرآن الكريم مما دعا إلى الاجتهاد فيها وقد ظل الإنسان في إطارها يفكر وينظر⁽¹⁾.

كما أثارت الصفات المتعلقة بالله نقاشاً عقلياً حولها ذلك أن بعضها قد أشار إلى تشبيهه أو تجسيم إذا أخذت على ظاهرها من قبيل تلك الآيات التي ورد فيها ذكر الوجه، واليد والجنب والاستواء وإلى جانبها الآيات التي أشارت إلى التنزيه مثل قوله تعالى: "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ"، ومن هنا أثارت الآيات نقاشاً عقلياً حول الصفات وعلاقتها بالذات⁽²⁾.

فأخذ البعض بالآيات التي كما وردت دون تأويل والبعض الآخر تأويلها تماشياً مع التنزيه وهكذا وقع البعض في التجسيم كأنه يعبد صنماً والبعض في التعطيل كأنه يعبد عدماً فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل لتأييد مدعي كل فرقة وهكذا أطلق العنان للتأويل النصوص المتعلقة بالذات والصفات والجبر والاختيار، كلام الله هل هو محدث مخلوق؟ أوقديم قدم الله؟ مشكلة العدالة الإلهية، الوعد والوعيد، العلاقة بين الفعل الإلهي والفعل الإنساني، في أواخر عهد الصحابة فاثاروا بذلك مشكلات وشبهات عقائدية عويصة⁽³⁾.

(1) محمد صالح محمد السيد، المرجع السابق، ص 74.

(2) محمد صالح محمد السيد، المرجع السابق، ص 74.

(3) أبو الوفاء التفتازاني، علم الكلام وبعض مشكلاته، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979 م، ص 14.

كما نجد الصوفية الباطنية التي كانت في أول عهدها على سمة السلف في العقائد والأصول، وكانت مخالفتها محصورة في بعض مظاهر التعبد والسلوك، وأغلب ذلك منشأه الجهل، ولكن مع الزمن تجارت الأهواء بالعباد والصوفية حتى دخلتهم الرهبانية المبتدعة، وسلكوا مسالك الأمم الأخرى، وتشبهوا بالنصارى والهنود، حتى دخلتهم الرهبانية، وابتدعوا طقوس المشايخ والمربين، وظهرت فيهم الشطحات والكلمات والعبارات خلال القرن (103هـ) ثم تطورت بعد ذلك وصارت مأوى لكل مبطل، ووعاء لكل مذهب ونحلة حتى اشتهر فيهم الإلحاد والزندقة وأعلن بعضهم الحلول والإتحاد ووحد الوجود⁽¹⁾.

وهنا نجد أن اتباع الهوى في النفس والطبائع، وترك شرع الله وما يأمر به، والجهل بالدين، هو سبب رئيسي في افتراق الأمة، وعدم التفقه في الدين عقيدة وشريعة، الإبتداع في الدين بأن شرعوا بما لم يشرعه الله لعباده أصلاً دون الرجوع إلى الكتاب والسنة، التعصب الأعمى والعصبية بشتى أنواعها، والتي تعمي الشخص عن الحق فلا يرى إلا ما يراه إمامه وشيخه ومذهبه أو فرقته، التشدد والتعمق في الدين، والتضييق على الناس في الأحكام والمعاملات والمواقف، اتباع المتشابه من الكتاب والسنة واتباع مالم يعلمه إلا الله، وترك الحكم الواضح المبين، تأويل الكتاب والحديث فيما يتفق مع هوى النفس وتوجيه الدين عن طريق التأويل الباطني والصوفي والكلامي حيث كل فرقة تؤول الآيات بما يتفق مع منهجها وعقيدتها دون الرجوع إلى سنة رسولنا الكريم وأحاديثه وأقوال الصحابة وسلف هذه الأمة، عدم فهم النصوص فهما صحيحاً وسليماً، كيد أعداء الإسلام والدين بما أظهروه قصداً لزرع الخلافات بين أهله وتقويض دولته، حيث فعلت تلك الملل والنحل في الإسلام من إثارة للنفاق والزندقة وبث البدع والأهواء بين المسلمين، تقديس العقل وتقديمه

(1) ناصر عبد الكريم العقل، نفس المرجع، ص ص 184 - 185.

على النقل، وهذا ما أضعف منزلة النصوص من الكتاب والسنة، فأصبح العقل أعلى منزلة من النص القرآني والسني، هي أسباب فرقة المسلمين وشيوع الاختلاف بينهم، وسبب لظهور الفرق والمذاهب المختلفة في الإسلام، واستمر ذلك الاختلاف حالياً خصوصاً مع المقلدين والمجددين.

الفهم بين التجديد والتقليد:

توجد علاقة وطيدة بين الفهم والخطاب، حيث أن الخطاب هو المظهر الذي يشكّل الفهم، ويتمظهر فيه الفهم، ولا غرابة أن نجد أن الخطاب هو الفهم أيضاً، فالخطاب الإسلامي هو فهم للإسلام، "فالخطبة الدينية والدرس المسجدي خطاب ديني، والمحاضرة والندوة خطاب ديني.. فالخطاب الديني شامل للإنسان والزمان كشمول الشريعة التي يركز عليها⁽¹⁾. ويختلف أيضاً الخطاب تبعاً للمشارب العقدية فتجد الخطاب السني، الخطاب السلفي، الخطاب الصوفي، الخطاب الشيعي، وفي كل نوع من هذه الخطابات نجد اختلاف في الفهم في الخطاب نفسه، وذلك تبعاً للفرق داخل كل خطاب، هذا الاختلاف الذي أفرزته العوامل التاريخية والثقافية، والتي لا تزال تأثيرات هذه العوامل تسري إلى اليوم.

وعموماً فإن الخطاب أو الفهم الإسلامي اليوم على اختلاف مشاريعه وأفكاره واتجاهاته لا يخرج عن نوعين من الخطاب؛ إحداهما متصل بالتقليد والآخر بالتجديد، فحسب أحد المجددين: "قد يكفي التذكير بأن اقتناعنا بأن القرآن

(1) عاشور بوقلقولة، الخطاب الديني وأبعاده المقاصدية، مجلة رسالة المسجد وزارة الشؤون الدينية والأوقاف-الجزائر، السنة الخامسة، العدد الأول، رجب 1428هـ/ جويلية 2007م، ص60.

يخاطب أهل كل زمان ومكان يفرض علينا اكتساب فهم متجدد للقرآن بتجدد الأحوال في كل عصر".⁽¹⁾

حيث أن المقاصد تلعب دورا مهما في هذا الاختلاف بين الفهم، وكل من هذين الفهمين يرى بأنه أصح وبأن الآخر لديه أخطاء، فنجد:

- الخطاب الظاهري الحرفي - الخطاب الحدائي.

يوصف الخطاب الحرفي الظاهري بأنه "يلغي الفكر والعقل ويقف بعيدا عن مقصود الشارع وغايته"⁽²⁾ بهذا المعنى يدخل فهم التيارات الإسلامية بما فيها السلفية، والحركة الإسلامية، والفرق الأخرى، التي تجتمع في تقديس النص، والأهم من ذلك بعدها عن الواقع ولا تسعى لحل مشاكل المسلم، سوى في إذكاء الصراع، والدخول في دائرة التكفير لبعضها البعض مما ولّد العنف والتطرف، والانغلاق في التفكير، وعدم تقبل الآخر حتى من الديانات الأخرى وقد دعانا القرآن بمجادلتهم بالحسنى والكلام اللين، لقوله تعالى: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"⁽³⁾.

أما الخطاب الحدائي، فهو الفهم الذي تأثر بالحدائث التي ظهرت في الغرب، وتعني "مجموع التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي شهدتها أوروبا بدءا من القرن السابع عشر إلى اليوم، والتي امتدت لتشمل أغلب العالم"⁽⁴⁾، ليتأثرا أصحاب هذا النوع من الفهم بأسس هذه التحولات

(1) محمد عابد الجابري، فهم القرآن الكريم القسم الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2009م، ص09.

(2) عاشور بوقلقولة، المرجع السابق، ص ص 60-61.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 46.

(4) محمد الشيخ، ما معنى أن يكون المرء حدثائيا؟، منشورات الزمن (سلسلة شرفاء الزمن الكتاب 17)، الدار البيضاء (المغرب)، 2006م، ص07.

كالعلمانية والعقلانية، وتطبيق آليات الفهم المعاصر⁽¹⁾، وقد تمثل أثرها من ناحية تجديد مفهوم الوحي القرآني فيما يلي:⁽²⁾

1 - عدم اعتبار الوحي ظاهرة غيبية متعالية ومقدسة.

2 - اعتبار الوحي ظاهرة ونصا وخطابا.

3 - القول بتاريخية وأنسنة الوحي القرآني.

غير أن أصحاب هذا النوع من الفهم يعتقدون أن قد حرروا فهم القرآن من الحواجز والضوابط إلا أنهم وقعوا في مغالطة في فهمهم أصلا للآليات المعاصرة، حيث أن هذه الآليات حين تطبيقها على أي نص أدبي يستدعي وجود وحضور صاحب النص عينيا لكي يُعرف ويُدرك المعنى الحقيقي، أما في النص الديني وبالأخص النص القرآني لا يمكن تطبيق هذه الآليات كلية، وبتطبيق هذه الآليات فإنها تفرق أكثر مما تجمع المسلمين في الفهم، لأن هذه الآليات تسمح لأي شخص أن يفهم القرآن وفقا لرغباته وأهوائه -وحتى أبعد من ذلك تؤدي إلى تغيير الأحكام الفقهية وهذا ما وقع فيه أبو زيد في معظم كتبه خصوصا في كتابه "دوائر الخوف" -وتزيد الهوة بين الناس في الفهم، وما نتج عن ذلك هو أن هذا الخطاب الحداثي "يتمسح بالمقاصد لإلغاء الشرع والمقاصد، فهو خطاب يقدم العقل على الشرع، والواقع على النص"⁽³⁾.

1) يقصد بها مجموع الأدوات والمناهج التي طبقت في قراءة النصوص بأنواعها المختلفة دينية أو فلسفية أو أدبية في الفترة المعاصرة خصوصا بعد تطور الدراسات في مناهج النقد الأدبي، وتطور البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهي أيضا المناهج التي استفاد منها الكثير من المنشغلين في مجال القرآن الكريم كأركون- أبو زيد وغيرهم الذين فكروا في نقلها إلى ميدانه وذلك لفهمه وقراءته.

2) هوارى حمادي، النص القرآني وآليات الفهم المعاصر، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة وهران، السنة الجامعية 2012م-2013م، ص 50.

3) عاشور بوقلقولة، المرجع السابق، ص 61.

ومنه فإن هذين النوعين من الفهم أي التقليدي والتجديدي، قد ساهم في التفريق في الفهم، كل حسب طريقته: فالأول ولّد التطرف والعنف والانغلاق في التفكير والتدبر، والثاني ولّد أخطاءاً منهجية فبدلاً من بناء الفهم الإسلامي ساهم في هدمه بحجة الحرية في الفكر والفهم متجاهلة الضوابط الشرعية وحتى المقاصد.

ويتبين أن كلا من الفهم التقليدي والتجديدي أو الحداثي لا يمثلان حقيقة الفهم الصحيح للإسلام وخصوصاً القرآن الكريم الصالح لكل زمان ومكان. لذلك ينبثق فهم آخر مختلف عن سابقه "يبجل النصوص ويحترم الواقع والعقل، والدين عنده لا يتعارض مع العلم، وصريح المعقول لا يخالف صحيح المنقول على حدّ تعبير ابن تيمية"⁽¹⁾، ولما كانت الشريعة مصلحة فإن المصلحة الحقيقية هي شريعة، ولهذا نرى أن هناك إمكانية لآليات تساعد على هذا الفهم الصحيح والوسطي بين التقليدي والحداثي.

الآليات الممكنة لتوحيد اختلاف الفهم:

نقصد بالآليات هنا مجموع القواعد والمناهج الممكنة التي يُستند عليها لفهم النص القرآني، "لأن المنهج هو الآلة التي يشرح بها المحلل جسم النص"⁽²⁾، وأهم هذه الآليات ما هو متصل بالجانب النظري أو المنطقي للذي يريد فهم النص، وجانب مرتبط بالتطبيقي والممارساتي ما هو متصل لصاحب هذا الفهم أو الخطاب مع المسلمين عامة.

(1) المرجع نفسه، ص 61.

(2) المنصف عبد الجليل، المنهج الأنثروبولوجي في دراسة مصادر الفكر الإسلامي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد 68، ص 32.

أولاً: الكشف

هو محاولة التقصي عن دلائل موجودة في النص القرآني والتي تكون مختفية، ومتوافقة مع واقعنا الحالي ومع الأبعاد المقاصدية، وهنا يتدخل الواقع ليحدد دلالة النص، وذلك طبعاً دون نفي أو تعارض مع أصول الدين، ومن الكشف ما يلي: ⁽¹⁾

1. من ناحية التوجيه: للواقع دور في توجيه معنى النص وإن كان في غير دلالته اللفظية إلا أنه لا يتخالف معه، ويتمثل الكشف التوجيهي في نفي الظهور الإطلاقي ونفي الظهور الدلالي، فمن جهة نفي الظهور الإطلاقي؛ نجد أن بعض النصوص فيها إطلاق ظاهر، والذي بدور هذا الإطلاق لا يحتمله الواقع مما ولد تعارضاً واختلافاً بينها، وهذا ما يستدعي نفي إطلاقيتها لتصبح نسبية، ومن أمثلة ذلك النوع؛ قوله تعالى: "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ" ⁽²⁾ ، وقوله عز وجل: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" ⁽³⁾ وقوله جل شأنه: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" ⁽⁴⁾، فمن منا يشك في عدم أخذ هذه النصوص على إطلاقها الظاهر، لعلمنا في الواقع أن الله قد هدى الكثير من الظالمين والكافرين والفاستقين.

وأما من جهة نفي الظهور الدلالي؛ فيمكن في بعض النصوص أن نجد دلالته اللفظية مخالفة لما هو عليه في الواقع، فكان لابد من توجيه المعنى لنفي الظهور، وذلك مثلاً في قوله تعالى: "وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"

(1) للتوسع أكثر: يعي محمد، منطق فهم النص-دراسة تعنى يبحث آليات فهم النص الديني وقبلياته، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 2010م، ص 237-234.

(2) سورة البقرة، الآية: 264.

(3) سورة الأنعام، الآية: 144.

(4) سورة المنافقون، الآية: 06.

سَبِيلًا"⁽¹⁾، ففي كثير من الأحيان نجد أن الكافرين يتحكمون في المؤمنين، لذا فهذا المعنى يمكن استبعاده لأنه ليس المراد.

2. من ناحية الانتظار: في بعض الآيات في النص القرآني تدعونا إلى الإمعان بدقة في قضية ما، ولذلك لأنه يوردها بصيغة إجمالية وعامة وشاملة، فمثلا في قضية شهادة المرأة كما بينها القرآن بأنها تعادل نصف شهادة الرجل، فالأمر الذي يستلزم البحث هو تفسير سر شهادة المرأة، وإن كان قد أشير إلى أن السبب هو نسيان المرأة مقارنة بالرجل، ولا يكفي هذا الحكم، بل الواجب القيام باختبارات تجريبية للتحقق من ذلك.

3. من ناحية التوقيف: يطلق الواقع جذورا في النص ولكن يبقى فهمنا قاصرا لأن الواقع يحجبنا عن ذلك، حيث "يبدى النص أحيانا دلالة كاشفة عن الواقع، لكن مع هذا لسنا قادرين على إيضاح حقيقة هذا الكشف، فنجهل هذه الحقيقة من جهة الواقع ذاته كما يدل عليها النص"⁽²⁾، ويظهر ذلك في بعض الآيات التي تتحدث عن تسبيح المخلوقات ونطقها، كقوله تعالى: "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا"⁽³⁾، وكذلك قوله تعالى: "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ"⁽⁴⁾، وكذلك نجد ذلك في قصة سليمان عليه السلام في حديثه مع النملة والهدد، كذلك ما صوره النص القرآني بأن الشهداء هم أحياء رغم أننا لا نحس بحياتهم وبوجودهم، قال جل شأنه: "وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ

(1) سورة النساء، الآية: 141.

(2) يحيى محمد، المرجع السابق، ص 236.

(3) سورة الإسراء، الآية: 44.

(4) سورة فصلت، الآية: 11.

يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ"⁽¹⁾. ومن هذه الآيات نجد أن معاني النص تحيلنا إلى الواقع مباشرة، ولكن معرفة حقيقة هذه المعاني تظل موقوفة على الواقع.

4. من ناحية الإشارة والتفسير: في هذا المقام يتدخل الواقع ليبين معنى النص، ويكون ذلك من خلال نوعين، أحدهما بالحالات الخاصة، والأخرى بالسنن العامة، ويكون هذا الكشف كالتالي:⁽²⁾

كشف الحالات الخاصة: ويعني مطابقة الواقع الخاص مع معنى النص ولا بد أن نعتبر هذا المعنى ظاهراً، لكي لا نقيده، فمثلاً قوله تعالى: "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً"⁽³⁾، من الآية نجد أن معناها متطابق مع الحقيقة العلمية المتضمنة بأن الجبال لها دور في تثبيت الأرض واستقرارها، والمعبر عن التثبيت بلفظ الأوتاد، ولكن نعتبر كما قلنا هذا المعنى ظاهراً، لأن النظرية العلمية أو ما يعرف بالإعجاز العلمي بقدر ما هو تصديق وبرهنة لحقائق وردت في القرآن الكريم، بقدر ما هو انتقاص منه لأن النظرية العلمية وخصوصاً أن النظرية الغربية في تطور وتغير وأحياناً هدم النظرية والإتيان بنظرية جديدة، فإذا أثبت أن نظرية علمية -كنا نعتقد بصحتها وبرهنتها على حقائق قرآنية- هي خاطئة فوقوعنا في مأزق وأزمة معرفة في القرآن مؤكد، لذلك انطلاقاً من هذه الآلية عند استعمالها وجب التأكيد على المعنى الظاهري لبعض المعاني في القرآن، أو بعبارة أخرى: تطابق المعنى الظاهر من النص مع حقيقة الواقع الخاص.

(1) سورة البقرة، الآية: 154.

(2) يحيى محمد، المرجع السابق، ص 236-237-238.

(3) سورة النبا، الآية: 6-7.

- كشف السنن العامة: ونعني به معرفة معنى النص القرآني انطلاقاً من الأنماط العامة للمجتمع والواقع الذي يعيشه هذا المجتمع، وهذه الأنماط هي السنن والأعراف الاجتماعية والتي لا تكون مخالفة للنص، كالعادات والأخلاق العلاقات بين الناس، وذلك في العديد من الآيات التالية: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"⁽¹⁾، "وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ"⁽²⁾، "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"⁽³⁾.

ثانياً: تحليل وموضوعية السيرة النبوية

ما من شك أن النص القرآني قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا ما يفسر العلاقة الحميمة التي جمعت به، ولعل عبارة السيدة عائشة رضي الله عنها: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ" لدالة على هذه العلاقة، لهذا استوجب الفهم الدقيق للقرآن الفهم الإضافي لسيرة مصطفى صلى الله عليه وسلم، فمن ناحية المناهج في بداية التدوين استخدم في السيرة منهج السرد والمنهج التاريخي⁽⁴⁾، ونظراً لكون هذين المنهجين مفيدتين للمتخصصين أكثر من العامة، فقد استلزم ظهور مناهج أخرى والتي رأيناها مناسبة للعامة

(1) سورة الرعد، الآية: 11.

(2) سورة الزخرف، الآية: 32.

(3) سورة الشرح، الآية: 06.

(4) المنهج السردى؛ وفيه تكتب السيرة النبوية بأسلوب قصصي تساق فيه المعلومات وتروى فيه الأحداث بتسلسل منطقي ومترايط مع اختلاف في درجة صحة الروايات، أما المنهج التاريخي؛ وفي هذا المنهج تكتب السيرة بأحداثها وترتب زمنياً حسب وقوعها على حسب السنوات، فيذكرون حوادث السنة الأولى من الهجرة ثم حوادث السنة الثانية. للتوسع انظر: بن سالم امحمد، دراسة السيرة النبوية بين الواقع والمأمول، مجلة رسالة المسجد وزارة الشؤون الدينية والأوقاف- الجزائر، السنة السادسة، العدد الثالث، ربيع الأول 1429هـ/ مارس 2008م، ص 72-81.

دون نفي المنهجين السابقين، وذلك حتى يفهموا النص القرآني والسيرة النبوية فهما صحيحان لا تشوبها شائبة. ومن هذه مناهج نجد: (1)

المنهج التحليلي: في هذا المنهج يغوص المخاطب في نصوص السيرة، ويستنبط الأحكام والعبر والعظات منها، وربط هذه العبر والدروس بالواقع والموازنة والمقارنة للرفع من الواقع عن طريق إصلاحه، لهذا يتطلب تحليل السيرة النبوية عقلية قادرة على فهم مشاكل الواقع وتحليلها، وقدرة على الاستيعاب، وممن قام بذلك في زمنه "ابن القيم الجوزية" في كتابه زاد المعاد.

المنهج الموضوعي: يتم في هذا المنهج جمع المعلومات والأحداث ولكن فقط المتعلقة بموضوع واحد خاص بمجال معين كالتربية، الأخلاق، السياسة، وغيرها من المواضيع، مع إعطاء فكرة متكاملة وشاملة عن هذا الموضوع.

بفضل هذين المنهجين يمكن أن نقطع شوطاً في توحيد الفهم، حيث بالرجوع إلى السيرة النبوية، يتذكر المسلمون رغم اختلاف اتجاهاتهم أن رسولهم واحد هذا من جهة، ومن جهة أخرى يقترب الناس العاديين ويتعرفون على روحانية الإسلام (2) (البعد الروحي) والمعاني الروحية للقرآن الكريم التي جسدها الرسول عليه الصلاة والسلام من خلال أقواله وأفعاله، وبالتالي الخروج من الفهم الضيق والمنغلق للقرآن الكريم.

(1) بن سالم امحمد، المرجع السابق، ص 73.

(2) للتوسع في البعد الروحي للإسلام انظر: مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية - مقاربات في فلسفة الدين، تر: عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط 01، 2010 م، نضال عبد القادر الصالح، المأزق في الفكر الديني بين النص والواقع، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 01، 2006.

ثالثا: نفي تاريخية النص القرآني

لقد ظهر مبدأ التاريخية مع الاتجاه الحداثي، وتعني حتمية الإنسان للفترة التي يعيشها، وبذلك تأثره بالزمان والمكان، والظواهر المحيطة به ثقافيا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا، ففي رأي الحداثيين أن النص القرآني تحكمه التاريخية⁽¹⁾، أي أنه محكوم بالظواهر والأطر التي وجد فيها وبالخصوص المجتمع العربي. ومن المؤكد أن لهذه الرؤية مغالطات عدة، لا تخدم فهم النص القرآني مع الواقع فقط بل تسعى إلى هدمه، لأن "أحكام القرآن ومفاهيمه وعقائده هي في الأصل ثابتة مطلقة عامة، ليست مرتبطة بأسباب النزول التي نزلت فيها، لأن الإسلام بما أنه خاتم الرسالات وإلى البشرية جمعاء، يستلزم حتما أن لا تكون أحكامه مرتبطة بالظروف التي ظهر فيها: زمانا ومكانا"⁽²⁾.

وإذا كان الوحي كحقيقة عقدية، فإن أهم ما فيه أحكام توحيدية، وكذلك أحكام فقهية كالحلال والحرام، فإنه من غير المنطقي أن تتغير الأحكام بتغير الزمان والمكان والظروف التاريخية كما يدعي الخطاب الحداثي، لأن تغير الأحكام سيكون مساسا بشرعية الوحي وتبليغه من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ..."⁽³⁾

(1) من الداعين إليهما محمد أركون يقول: "فكل شيء مشروط بتاريخيته أو بلحظته التاريخية التي ظهر فيها" انظر: محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، تر: هاشم صالح، دار الساق، بيروت، ط 01، 1999م، ص 194.

(2) خالد الكبير علال، الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد عابد الجابري ومحمد أركون، دار قرطبة، الجزائر، 2009م، ص ص 65-66.

(3) سورة المائدة، الآية: 67.

وبتطبيق التاريخية على النص القرآني اعتقد أصحاب الخطاب الحداثي أن القرآن ظاهرة تتناسب ثقافياً مع المجتمع العربي؛ الذي هو مجتمع تقليدي السائد فيه الفكر الأسطوري، وهذا ما يؤدي حسب الفهم الحداثي إلى تاريخية الأحكام الشرعية، فإما أن المسلم لم يُعد مخاطباً بها حالياً أو مستقبلاً، وإما أن يتم تأويل هذه الأحكام تأويلاً سيئاً قائماً على الهوى والعبث وليس على الدليل الشرعي، "أما الاحتمال الأول فقد تحشاه الخطاب الحداثي أو تحاشى التصريح به، وإما الاحتمال الثاني: (أي) التأويل العبثي فقد أخذ به وبشكل مرعب أدى إلى تصادم جلي مع الأحكام الشرعية التي هي مضامين الوحي" ⁽¹⁾.

فالتاريخية لم تتوقف عند الأحكام المختلف فيها أو الفروع، ولكن طالت وتجاوزت ذلك حتى الأحكام العامة والأصيلة في الدين، والمتعلقة بأركان الإسلام، حيث يريد الحداثيون إثبات تاريخيتها: الصلاة-الصيام-الزكاة-الحج، بإنكار وجوبها بالإضافة إلى مسألة الحجاب والربا: ⁽²⁾

فبالنسبة لركن الصلاة لا يعتبر الفهم الحداثي لها هيئة مخصوصة التي يؤدي عليها المسلمون، وحجتهم في ذلك هي عدم تفصيلها في القرآن الكريم وردّ رواية موسى التي تثبت أن الصلاة قد فرضت خمس صلوات في اليوم والليلة واختلاف الجغرافيا، فهناك أقطار ليلها أطول من نهارها، وهناك أقطار نهارها أطول من ليلها، يقول عبد المجيد شرفي: "إلا أن ذلك لا يعني أن المسلمين مضطرون في كل الأماكن والأزمنة والظروف للالتزام بذاك النحو" ⁽³⁾، مما يدل أن التاريخية متناقضة مع النصوص المتعلقة بركن الصلاة.

(1) مرزوق العمري، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 01، 2012م، ص 511.

(2) للتوسع أكثر انظر: مرزوق العمري، المرجع السابق، من ص 512 إلى ص 522.

(3) عبد المجيد شرفي، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة، بيروت، 2001م، ص 62.

وتختلف الزكاة عن الصلاة في الفهم الحدائي، من خلال أن الفهم الحدائي لا ينفيها، ولكن ينفي طابعها الديني، مما يدل أن أنصار الاتجاه الحدائي ليس مشكلتهم مع النص القرآني فحسب، وإنما مع الإسلام كُله.

أما أحكام الصيام فينفونها أيضاً طبقاً لتاريخية النص الديني، ويرون التخيير بين الصيام والإطعام، حيث في الصيام "ترك الباب مفتوحاً لعدم صومه والتعويض من هذا الصوم بإطعام مسكين أو مساكين" ⁽¹⁾ ، فكيف ينكرون الآيات التي تدل على وجوب الصوم: قوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ.." ⁽²⁾ ، وقوله جل شأنه: "فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ.." ⁽³⁾ ، وقوله عز وجل: "وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" ⁽⁴⁾ .

وينطبق الأمر كذلك على الحج بفهم الحدائيين المرتكز على إدخال الأسطورة في الحج، وأنه استمرار لأساطير العرب القديمة. بالإضافة إلى أركان الإسلام، تعدى الفهم الحدائي إلى مسألة الربا والحجاب، حيث دائماً مع مبدئهم المزعوم بتاريخية النص القرآني يرون إباحة الربا نظراً إلى متطلبات اقتصادية حالية كالتضخم، لذلك يرون جوازها، وكذلك في مسألة الحجاب؛ يرون كذلك اعتبار الحجاب مسألة نسبية بتطبيقها، وعدم اعتبار هيئة الحجاب الشرعية هيئة شاملة وإنما خاصة بزمان خاص، والحجاب ينفي حرية الإنسان ⁽⁵⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 64.

(2) سورة البقرة، الآية: 183.

(3) سورة البقرة، الآية: 185.

(4) سورة البقرة، الآية: 184.

(5) للتوسع انظر: مرزوق العمري، المرجع السابق، ص ص 512-513.

ومنه يتبين لنا أن التاريخية مبدأ استطاع بزعم الفهم الحداثي تطبيقه على النص القرآني، إلا أنها وهم لكثرة أحكامها المتبعة للهوى، وكذلك تناقضها مع المقاصد، وخروجها عن أصول الإسلام، وموجدة للفرقة في الفهم من خلال التأويل للآيات الصريحة في غير محلها، وبذلك تسعى إلى تفريق وتشتيت الأمة لذلك يجب نفي تاريخية النص القرآني وعدم الأخذ بها.

رابعاً: قصدية الخطاب

كما أشرنا سابقاً أن الفهم والخطاب متطابقان، حيث أن الفهم وإن كان له بعد النظري، إلا أن بعده التطبيقي هو الخطاب، فبالنسبة للمتخصصين يكفهم الآليات السابقة الذكر، إلا أن مع العوام يندرج هذه الآلية أي قصدية الخطاب.

نورد هذه الآلية في جملة من الاعتبارات -يجب توفرها في خطاب المفسر أو الفاهم حتى يوصله إلى العوام أو الناس العاديين غير المتخصصين- أهمها:⁽¹⁾

1 - الوفاقية: وتعني بأن يكون الخطاب الإسلامي يجمع ولا يفرق، يسدّد ويقارب، ويكون ذلك بالتركيز على الأصول دون الفروع، أو الاهتمام بالأمور المشتركة أكثر من الأمور المتنازع والمختلف فيها، بل عدم التطرق إليها إطلاقاً.

2 - الصدقية: لا تكون هذه الصدقية في الخطاب إلا بالإخلاص للفكرة والمبدأ في الفهم، وهذا ما يجعل الفهم خالص وخالي من شوائب الإيديولوجية والتعصب والتطرف، حيث في التاريخ الإسلامي نلاحظ أن الإسلام قد كسب نفوساً غير الإسلام بهذه الصدقية.

(1) عاشور بوقلقولة، المرجع السابق، ص 61-62. وللتوسع أكثر انظر: بشير خلف، الخطاب الديني بين الغلو والاعتدال، الندوة الفكرية الثامنة، الرابطة الولائية للفكر والإبداع، ولاية الوادي، مزار للطباعة والنشر، 2010م.

3 - الواقعية: تتجلى واقعية الخطاب الإسلامي بالتركيز على القضايا والظواهر والمشاكل الراهنة للناس؛ التي تجعل من الناس يرون أنها من الأولويات التي يجب حلها، وبالتالي على الفهم أن يركز عليها دون التركيز على إحياء حوادث أو ظواهر ماضية لا علاقة لها بالحاضر.

4 - التفتح: على الخطاب أن يكون منفتحا على الخطابات الأخرى حتى ولو كانت مختلفة عنه، لأن التفتح يؤدي إلى الوحدة من خلال تناول الأصول، والرجوع إلى الأصول يعني إيجاد نقاط الاشتراك أكثر من الاختلاف، وعدم اعتبار نقاط الاختلاف من أصول الإسلام.

5 - التلاؤم: يتمثل في أن يراعي الفهم أحوال المكلفين، حيث من مظاهر مراعاة أحوال المكلفين أن يختلف الخطاب للشباب عن الخطاب للشيخ، وكذلك الخطاب للمثقفين عن الخطاب لغير المثقفين، ومن ثمَّ عموماً يختلف الخطاب للفرد الواحد حسب متغيراته وأحواله وأوضاعه، فالفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان، ولا يعني ذلك أن نغير الأحكام بتغير الزمان والمكان، وهذا المنهج كان متبعاً عند السلف الصالح رضوان الله عليهم النابع من مشكاة النبوة.

وفي الأخير ومن خلال ما سبق يتبين أن القرآن الكريم هو نص ديني وهو الأساس في الإسلام، وهو الموجه للأمة الإسلامية، التي هي موحدة به، لذلك يستلزم أن يكون فهما موحداً له بعيداً عن الفرقة والتشاحن والتباغض، ناهيك عن التطرف الديني والعنف، فأردنا من خلال هذه الورقة أن نبين أن الاختلاف في الفهم في بداياته سببه الظروف السياسية التي مرت بها الدولة الإسلامية ونعني بذلك الخلافة، التي ظهر جراء التنازع حولها مجموعة من الفرق كل أدلى بدلوه فيها، ليستمر ذلك التنازع والاختلاف، بالإضافة ظهور التيار

الحدائي في الفهم، مما يبين أن المسلمين في حاجة ماسة حالياً أكثر من وقت آخر لتوحيد الفهم، وذلك من خلال الآليات التي ذكرناها التي هي مرتبطة أكثر بواقع المسلمين أكثر من النص، ونتيجة لتطبيقها سيكون تخليص الفهم من التطرف والاختلاف والانغلاق، وجعله فهماً منفتحاً فيه جدال حسن ومحاورة للآخر في إطار السلم والأمن.

قائمة المراجع:

* القرآن الكريم.

- صحيح البخاري .

- صحيح مسلم .

الكتب:

- 1 - الأشعري أبو الحسن، مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين، بتحقيق محمد معي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط2، ج1، 1969م.
- 2 - ابن تيمية، الإكليل في المتشابه والتأويل، مكتبة أنصار السنة المحمدية، مصر، ط2، 1947م.
- 3 - ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسيرات، منشورات دار الحياة، بيروت.
- 4 - أركون محمد، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، تر: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ط01، 1999م.
- 5 - التفتازاني أبو الوفاء، علم الكلام وبعض مشكلاته، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1979م.
- 6 - الأصفهاني الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد السيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- 7 - البغدادي عبد القاهر، الفرق بين الفرق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985م.
- 8 - الجابري محمد عابد، فهم القرآن الكريم القسم الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2009م.

- 9 - الجزيري نوران، قراءة في علم الكلام الغائية عند الأشاعرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م.
- 10 - الرومي فهد عبد الرحمن بن سليمان، جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ط1، 2003م.
- 11 - العمري مرزوق، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2012م.
- 12 - السيد محمد صالح محمد، أصالة علم الكلام، دار الثقافة، القاهرة، 1987م.
- 13 - السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر أبو الفضل، الإتيان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الرياض، ج6، 1426هـ.
- 14 - الشيخ محمد، ما معنى أن يكون المرء حدثياً؟، منشورات الزمن (سلسلة شرفاء الزمن الكتاب 17)، الدار البيضاء (المغرب)، 2006م.
- 15 - الصالح نضال عبد القادر، المأزق في الفكر الديني بين النص والواقع، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط01، 2006.
- 16 - النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعارف، الاسكندرية، ط4، ج1، 1966م.
- 17 - جلي أحمد محمد أحمد، دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين -الخوارج والشيعة-، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية، الرياض، ط2، 1988م.

- 18 - حقي محمد صفا شيخ ابراهيم، علوم القرآن من خلال مقدمات التفسير، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2004م.
- 19 - شحاته عبد الله، منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم، مطبعة جامعة مصر، القاهرة، 1984م.
- 20 - شرفي عبد المجيد، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة، بيروت، 2001م.
- 21 - عتر نور الدين، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح، دمشق ط1، 1993م.
- 22 - علال خالد الكبير، الأخطاء التاريخية والمنهجية في مؤلفات محمد عابد الجابري ومحمد أركون، دار قرطبة، الجزائر، 2009م.
- 23 - صالح عبد القادر محمد، التفسير والمفسرون في العصر الحديث، دار المعرفة، بيروت.
- 24 - محمد يحيى، منطق فهم النص-دراسة تعنى ببحث آليات فهم النص الديني وقبلياته، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 2010م.
- 25 - ملكيان مصطفى، العقلانية والمعنوية-مقاربات في فلسفة الدين، تر: عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط01، 2010م.
- 26 - ناصر عبد الكريم العقل، دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها، دار كنوز اشبيليا، الرياض، ط2، ج1.

الندوات:

27 -خلف بشير، الخطاب الديني بين الغلو والاعتدال، الندوة الفكرية الثامنة، الرابطة الولائية للفكر والإبداع، ولاية الوادي، مزار للطباعة والنشر، 2010م.

المجلات:

28 - امحمد بن سالم، دراسة السيرة النبوية بين الواقع والمأمول، مجلة رسالة المسجد وزارة الشؤون الدينية والأوقاف-الجزائر، السنة السادسة، العدد الثالث، ربيع الأول 1429هـ/ مارس 2008م.

29 - بوقلقولة عاشور، الخطاب الديني وأبعاده المقاصدية، مجلة رسالة المسجد وزارة الشؤون الدينية والأوقاف-الجزائر، السنة الخامسة، العدد الأول، رجب 1428هـ/ جويلية 2007م.

30 - عبد الجليل المنصف، المنهج الأنثروبولوجي في دراسة مصادر الفكر الإسلامي، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد 68.

الرسائل العلمية:

31 - حمادي هواري، النص القرآني وآليات الفهم المعاصر، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة وهران، السنة الجامعية 2012م-2013م.

المعاجم:

32 - ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.

- 33 - ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار النوادر، الكويت، ط1، ج5.
- 34 - إبراهيم محمد اسماعيل، معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1964م.
- 35 - الجرجاني أبي الشريف علي بن محمد، التعريفات، دار المعرفة، مصر، 1938م.